ISSN 1112-7007
EISSN 6804 -2600

المجلد 17/ العدد 2 (ديسمبر 2022): ص.ص:691-713

تاريخ الأدب الجزائري وقضاياه عند(أبو القاسم سعد الله) من خلال كتابه(تاريخ الجزائر الثقافي)

The history of Algerian literature and its issues according to (Abou El-kacem Saadallah) through his book (The Cultural History of Algeria)

د. قادة يعقوب*

جامعة البويرة، الجزائر. k.yagoub@univ-bouira.dz

تاريخ الاستلام: 2022/07/29؛ تاريخ القبول: 2022/12/15؛ تاريخ النشر: 2022/12/31

ملخص:

يدرس هذا البحث أسس تاريخ الأدب التي اعتمده (أبو القاسم سعد الله) في كتابه (تاريخ الجزائر الثقافي)، كالتحقيب، والتصنيف، والترتيب، ومفهوم تطوّر الأجناس الأدبية، ودراسة الأسلوب من الوجهة التاريخية، وقد بسط البحث مجموعة من القضايا النقدية، كمفهوم الأدب الجزائري، وارتباطه باللّغة، وأشكال الأدب الجزائري، وتطوّرها عبر العصور. وخلص إلى مجموعة من النتائج، أهمها إسهام علماء الجزائر وأدباؤها في الأدب العربي.

كلمات مفتاحية: التاريخ الأدبي؛ الأسلوبية التاريخية؛ الأدب الجزائري؛ الثقافة.

Abstract:

This research studies the foundations of the history of literature adopted by (Abou El-kacem Saadallah) in his book (The Cultural History of Algeria), such as enquiry, classification, arrangement, the concept of the development of literary genres, and the study of style from the historical point of view. Its connection with the language, the forms of Algerian literature, and its development through the ages. He concluded a set of results, the most important of which is the contribution of Algerian scholars and writers to Arabic literature

---

* المؤلف المرسل.

Keywords: History of literature; Algerian literature; genres; culture; historical stylistics

المقدمة:

يحلّل هذا المقال الخلفيات التي انطلق منها (أبو القاسم سعد الله) عند تأليفه لـ(تاريخ الجزائر الثقافي)، فمنها ما يتعلق بالرؤية الفكرية لقضايا الأدب والتاريخ، والثقافة، كلّ ذلك في إطار سعي المفكّر إلى دراسة راهن الثقافة الجزائرية، من أجل تأصيله، وتطهيره، دحضا للطروحات التي يحاول أصحابها أن يفرضوها واقعا جديدا يسلب الهوية، ويشوهها. ولا شك أنّ التأليف في التاريخ بأنواعه يهدف إلى فهم الماضي من أجل تفسير الحاضر، ثمّ بناء المستقبل. كانت الكتابة التي انتهجها (أبو القاسم سعد الله) فاحصة للماضي عن طريق تحليل الوثائق والشهادات التي جمعها، واطّلع عليها؛ وقد انتظم هذا المنهج كلّ موسوعته(تاريخ الجزائر الثقافي) في كل العصور التي حددها. كما يهدف المقال إلى استخلاص المنابع المعرفية والعلمية التي نهل منها (أبو القاسم سعد الله)، مع توضيح المبادئ التي استند عليها في كتابة تاريخ الأدب، سواء العامّة منها أم الخاصّة.

1-طرائق تأليف تاريخ الأدب

تأثرت نشأة تاريخ الأدب عند الغرب بالنهضة العلمية التي سادت العلوم الطبيعية، والتي حقّقت مناهجها التجريبية نتائج دقيقة، ما أسهم في تطوّرها، لذلك دعا الباحثون في العلوم الإنسانية إلى استعارة هذه المناهج التجريبية لعلها تحدث التطوّر المنشود. وعليه فإنّ المبادئ العلمية التي سادت في العلوم الطبيعية تكاد تنطبق على المبادئ العلوم الإنسانية؛ فما المقصود بمبادئ تاريخ الأدب؟

من المفاهيم الداخلة في تحديد مبادئ التاريخ الأدبي مفهوم التطوّر، ومفهوم التعاقب، والتجنيس، والتحقيب، وماهية الأدب. ويطرح هذا التحديد قضايا نقدية منها تداخل ما هو أدبي بما ليس أدبيا، ما دفع بالمؤرخين إلى اعتماد تعريف جامع يتّسع مرة ويضيق أخرى، فيعدّون الأدب كلّ تراث الأمّة، كما هو الشأن عند (كارل بروكلمان) في كتابه (تاريخ الأدب العربي)[1].

(1) كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تر: عبد الحليم النّجار، دار المعارف، ط05 ، (د.ت)، ج01، ص03، 04.

ولكلمة (تراث) في(تاريخ الجزائر الثقافي) دلالات متنوعة، تكون بحسب ما يضاف إليها؛ كما في عبارة (التراث الأدبي) ويقصد به الأدب بفنونه المختلفة كالرسائل الديوانية، والمراسلات، والخطب[1]. والتراث الثقافي، ومعناه المؤلفات التي يتركها العلماء، سواء في اللّغة، أو الأدب، أو الفقه، وكلّ ما له تأثير في سلوك الإنسان وأخلاقه[2]، والتراث الإسلامي، ومعناه ما خلّفه المسلمون من فقه، وتفسير، وعلوم شرعية، ومساجد، وزوايا[3]، والتراث العمراني، ويدخل في دلالته المعالم الأثرية الحضارية[4]، التراث الجزائري، آثار الماضين الجزائريين، وتشمل هذه الآثار الفلكلور، والنصوص الشعبية، والرحلات، والكلمات الدّارجة، وجمع الأمثال الشفوية[5].

وقد سعى (كارل بروكلمان) في كتابه(تاريخ الأدب العربي) إلى جمع التراث العربي الذي توزّع في مكتبات العالم كمخطوطات ومطبوعات، ولعل ذلك كان مسوّغا للدّارسين الذين اطلعوا عليه كي يصفوه بالعمل الموسوعي، وإذا ما قارنا هذا المؤلف بكتاب(أبو القاسم سعد الله): (تاريخ الجزائر الثقافي) وجدنهما يشتركان في صفة الموسوعية، وقد اعتمد (أبو القاسم سعد الله)في ترسيخها على جمع الوثائق بأشكالها المختلفة، انطلاقا من الشهادات الشفوية وصولا إلى المخطوطات، والكتب المطبوعة، وعليه فإنّ من مبادئ تاريخ الأدب هو نزعة الإحاطة بدقائق المعلومات التي تخصّ النوع الأدبي، وتراجم الأعلام، والمدارس الأدبية، والتيارات الفكرية، وهو ما يجعل التأليف في تاريخ الأدب يشترك مع الموسوعات الأدبية في المنحى، لكن الاختلاف بينهما نجده في طرائق التأليف، فتاريخ الأدب-على سبيل المثال- له مجالات يقيم معها حوارات تخصّ الأدب، كالنقد الأدبي، ونظرية الأدب، فضلا على أنّ التأليف في تاريخ الأدب له معاييره التي استنتجها (غوستاف لانسون)[6]، أمّا الموسوعات فتميل إلى جمع المعلومات المفصلة

(1) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج08، ص10.

(2) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج01، ص39.

(3) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج07، ص427.

(4) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج05، ص124.

(5) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج08، ص169.

(6) ينظر: بول آرون وآلان فيالا، سوسيولوجيا الأدب، تر: محمد علي مقلد، دار الكتاب الجديدة، ط01 2013، ص28 ، 29، 30.

حول موضوع الواحد، وغالبا ما تكون طرائق تأليفها متعدّدة يتعدد الموسوعات.

إنّ تفضيل (أبو القاسم سعد الله) لكلمة(الثقافة) على (الأدب) هو ما فرض تأليفا موسوعيا، فالمفهوم بمعنى الحديث يتّسع لجميع أشكال التعبير، ومن ضمنها الشكل الأدبي، وهو بذلك يعرّف الأدب ضمنا بأنّه شكل من أشكال التعبير الثقافي الذي مارسه الشعب الجزائري للتعبير عن طموحته، وفي داخل هذا التعريف الضمني تطرح مسألة لغة الأدب الجزائري مقابل الأدب العربي الذي لا يتعرف إلاّ باللّغة العربية مهيمنة على كلّ الثقافات الأخرى التي اندمجت في الحضارة العربية الإسلامية مشكّلة ثقافات اختارت اللّغة العربية للتعبير عنها.

ممّا نجده مرتبطا بمفهوم التراث العربي من منظور المقاربة الجزائرية الوصفَ الذي ألحقه (أبو القاسم سعد الله) بالعلاّمة(البشير الإبراهيمي)، حيث قال:« لقد استحق الإبراهيمي التقدير الكبير على أدبه من المعاصرين. فانتخب لمجمع اللغة العربية في القاهرة وفي دمشق. ونوّهت به النوادي في تونس والجزائر والعراق وغيرها. وبقدر ما كان أدب (عاشور الخنقي) حجة على استمرار ومقاومة اللغة العربية وأسلوبها الراقي، رغم اعتبارها أجنبية في بلادها، بقدر ما كان أدب الإبراهيمي حجة أخرى على نبوغ الجزائري في التراث ودفاعه عن الأصالة. وخلافا لعاشور كان الإبراهيمي واسع الجمهور كثير الأنصار والمعجبين، وكان بعيد التأثير في الجزائر والمشرق.»[1] فواضح أنّ التراث بهذا الوصف له اتجاهان؛ اتّجاه يمثّله(عاشور الخنقي)، فهو يحافظ على التراث العربي القديم، واتّجاه يمثّله(البشير الإبراهيمي)، وهو ذو نزعة إبداعية. وقد توفرت هذه المقارنة في مؤلف (أبو القاسم سعد الله)، وغالبا ما كانت ثنائية،[2] ويمكن اعتبارها نقدا لتراجم الأعلام، وإيضاحا لأثرهم في الأدب الجزائري، وهذا المنحى يمثّل أحد الأسس التي تقوم عليها كتابة تاريخ الأدب.

(1) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ط) 2007. ج08،ص84.

(2) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج01، ص78،79.« لم تنجب جزائر القرن التاسع شاعرا متميزا كابن خميس في السالفين وابن علي في اللاحقين، بل إنها لم تنجب أديبا بارزا يغشى بأدبه بلاطات السلاطين ومجالس الطرب واللهو كما فعل الشاعران الحوضي والخلوف (إذا ثبتت جزائرية الثاني) والمؤرخان ابن القنفذ والتنسي.»

اعتبر (أبو القاسم سعدالله) مفهوم الأدب جزءًا من الثقافة، رغم أنّه يقيم تحديدا ضمنيا للأدب، حيث يقسّمه إلى شعر ونثر، فللشعر أغراض وموضوعات، وللنّثر فنون وأجناس، والبيّنُ أنّ هذا الإلحاق نابع من واقع الثقافة الجزائرية، وطبيعتها في مختلف العصور؛ فـ« الأدب، والشعر أخصه وأرقه، قد اختلط بالتاريخ كما كان الحال عند التنسي أو اختلط بالتصوف والمدائح النبوية كما كان الحال عند الحوضي، أو طغت عليه الشروح والمتون.»[1] لذلك نجد الأدب مقرونا بالتصوف، والفقه، والتاريخ، وأنّ الجزائريين الذين أبدعوا أدبا لم يكونوا أدباء خلصا إنّما كانوا في الغالب علماء، وهذه خاصية الأدب الجزائري المميزة له في غالبية الفترات التي درسها (أبو القاسم سعد الله). ولنا أن نفسّرها بما سمّاه من الظواهر الاجتماعية والثقافية، بروح العصر.

ورغم أنّ المؤلف عدّ الشروح الأدبية نوعا من التراجع في الإبداع الأدبي، لأنّ الأدباء اكتفوا بإبداع غيرهم، وانصرفوا إلى تحليلها، ودرسها؛ إلاّ أنّه رآها معبّرة عن ثقافة العصر، «فالأدباء كانوا يظهرون براعتهم في عدة ميادين، ومنها الشروح الأدبية التي كانت تعطيهم فرصة لاستعراض محفوظاتهم وذوقهم الأدبي والنقدي ومدى اطلاعهم على تاريخ الأدب والحضارة بوجه عام.»[2].

ولنا أن نخلص إلى أنّ المؤلف استوحى طريقة التأليف في التاريخ الأدبي بالاعتماد على هذا التمازج بين الفنون لغوية كانت أم غير لغوية، وأنّه اعتمد على تقسيم تاريخ الجزائر إلى فترات محدّدة وصف في إطارها ما أنتجه الجزائريون من ثقافة، لذلك هو يكتب تاريخا للثقافة الجزائرية، يشمل تاريخ الأدب الجزائري.

2-ما المقصود بقضايا تاريخ الأدب الجزائري؟

هي ما اختلف حولها المؤرخون لاختلاف الرؤية التاريخية للأدب، كما في اعتبار الأدب شاهدا على تاريخ الأمّة الأدبي والثقافي والاجتماعي، ومبعث تطلّعاتها إلى المستقبل. وقد ذكر المؤلف في وصف المصادر التي اعتمدها في كتابة تاريخ الجزائر الثقافي في العهد العثماني أنّه «أصبح على المؤرخ أن يعود في دراسة هذا العهد إلى كتب التصوف(...)، أو

(1) تاريخ الجزائر الثقافي، ج01، ص79.

(2) تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص182.

إلى الرحلات والأعمال الأدبية والشعر وحتى الشروح الفقهية والنحوية (...)، بالإضافة إلى السجلات والوثائق الرسمية.»[1].

كما تطرح في هذا الموضع أيضا قضية أنّ التاريخ الأدبي الحديث يسعى دعاته إلى تجاوز النّظرة التقليدية التي دارت بحوثه في فلكها، ولعل توجّه المؤلف إلى اعتبار الأدب جزءا من الثقافة يصب في هذا الاتّجاه التجديدي الذي يضع الأعمال الأدبية في سياق أكبر هو السياق الثقافي؛ وهو ما ينتظم هذا الكتاب من بدايته إلى نهايته، حيث نجده يناقش العلاقات المنظّمة للأدبي والثقافي؛ «فالخطاب حول الأدب نقديا كان أم تاريخيّا، هو أيضا خطاب داخل المجتمع، وداخل المؤسّسة الاجتماعية، وأجهزة الدّولة.»[2].

ومن قضايا التاريخ الأدبي اللّغة في بعدها القوميّ، فاللّغة العربية تصيّر الأدب الجزائري جزءا من الأدب العربي، ومسهما في الحضارة العربية الإسلامية، وقد أثار (أبو القاسم سعد الله) هذه المسألة في مناقشته للأدب الجزائري عبر العصور، ففي العهد العثماني يصف حال اللّغة العربية بقوله:« ولا شك أنّ لغة الحضارة الإسلامية في وقتهم كانت هي اللغة العربية ولا نعرف أنّ الحكام العثمانيين كانوا يتقنون العربية العامية فما بالك بالعربية الأدبية، فكيف تتوقع منهم تشجيع إنتاج بلغة لا يعرفونها ولا يتذوقونها؟»[3] وأثر ذلك سلبا على الأدب الجزائري. وينضاف إلى جهل الحكام الأتراك باللّغة العربية، منافسة اللّغة التركية، ومزاحمة بعض اللّهجات للّغة العربية، ما زاد في تراجع الأدب الجزائري.[4] كما ناقش أثر اللّغة العربية في تحديد جزائرية الأدب عندما حلّل قضية الأدب الجزائري المكتوب باللّغة الفرنسية، وألمح إليها كذلك لمّا أرّخ للأدب الشعبي. والنتيجة أنّ اللّغة العربية ومعها الأدب الجزائري يمثلان وجهين من وجوه المقاومة على مرّ العصور. فظهور أدباء في عصور تراجعت اللّغة العربية فيها هذا التراجع الكبير أمر جعل (أبو القاسم سعد الله) يستغربه، ويعجب منه، فيقول: «وإذا كانت صناعة الأدب قد واتت ابن الخطيب في عصره وكان لذلك مبررات كثيرة تساعده،

(1) تاريخ الجزائر الثقافي، ج01، ص29.

(2) كليمان موازان، ما التاريخ الأدبي؟، تر: حسن الطالب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط01 2010، ص،62.

(3) تاريخ الجزائر الثقافي، ج01، ص194.

(4) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج02،ص171، 172.

فإن ظهور ابن عمار في القرن الثاني عشر وفي مدينة الجزائر، التي لا يستعمل ولاتها اللغة العربية أصلا، فما بالك بفهم أساليبها وبيانها، هو أمر في حد ذاته يثير الغرابة والإعجاب معا»[1].

3-ما هو الأدب الجزائري؟

مسألة أثارها (أبو القاسم سعد الله) في سياقاتها المتنوعة، منها ما يتعلّق بالظروف التاريخية والاجتماعية والثقافية، فهو يقول عندما تعرض لظهور الرواية في الأدب الجزائري: «وهكذا يتبين أن الأدب الجزائري باللغة الفرنسية أخذ مكانا واضحا منذ مطلع الخمسينات، وأخذ ينافس الأدب العربي القديم والحديث في الجزائر، وقد زادت أحداث الثورة من بلورة هذا الأدب وظهوره على المسرح العالمي أيضا، وكادت الجزائر لا يعرفها العالم إلا به حتى بين أدباء المشرق عندئذ، تحت شعار أن الاستعمار الفرنسي قد جرد الجزائريين من لغتهم وثقافتهم الأصلية حتى أنهم اندمجوا في لغة المستعمر ذاته ونسوا لغتهم.»[2].

واضح في هذا الاستنتاج دور اللّغة في تحديد الأدب الجزائري، وما تطرحه من إشكالات تُظهر طريقة أغراض المستعمر من وراء تصنيف الأدب على أساس لغته، فعلى صعيد تكريم الأدباء الجزائريين الذين كتبوا الرواية باللّغة الفرنسية من أمثال(مولود معمري)، و(مولود فرعون)، و(حسن شبلي)؛ فقد نال كلٌّ منهم جائزة فرنسية، الأوّل عن روايته(الربوة المنسية)، والثاني عن روايته (الأرض والدّم)، والثالث عن شعره، فإنّ (سعد الله) يرى هذا التكريم تتويجا للأدب المكتوب باللّغة الفرنسية، لا الإبداع الجزائري في حدّ ذاته، لأنّ المقصود إفهام المطّلعين على هذا الأدب سواء أكان منهم في الدّاخل أم في الخارج، أنّ لغة الجزائري هي الفرنسية وأنّ العربية لا وجود لها[3].

رغم كلّ هذا فقد عقد (أبو القاسم سعد الله) فصلا في الجزء العاشر من (تاريخ الجزائر الثقافي) بعنوان(أدباء اللّغة الفرنسية)، ويقصد بهم (أدباء الجزائر بالفرنسية)، حيث جمع أسماءهم مشافهة من (محمد يعلى)، ونجد في تعليقه استكمالا للأسماء

(1) تاريخ الجزائر الثقافي، ج02، ص235.

(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، ص186.

(3) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، ص185.

الذي لم يذكرها له؛ ثمّ أوضح موقف المثقفين من النقاد العرب والفرنسيين من هذا الأدب بقوله: «فقد كنت أسمع عن بعضهم من خلال الدوريات العربية التي أخذت تترجم وتنشر أخبارهم لعلاقة أدبهم بالثورة الجزائرية، ولأنّ النقاد الفرنسيين كانوا يتحدثون عنهم في شيء من الاعتزاز أحيانا باعتبار أدبهم ما هو إلا نتاج (مدرسة الجزائر) الأدبية الفرنسية، وأحيانا كانت تتحدث عنهم في شيء من الدهشة والاستغراب باعتبار أدبهم أدبا هجينا مركبا من زيجة عربية - فرنسية، وكانت الصحف والدوريات العربية ولوعة بالأدب الأجنبي ولو كان من أتفه الإنتاج إذا كان منتجوه من العرب أنفسهم كحالة الأدب الجزائري الذي اكتشفته تلك الدوريات من خلال اللغة الأجنبية، فكانت (عقدة الخواجة) وراء العناية بأدب محمد ديب وكاتب ياسين ومولود معمري ومولود فرعون ومالك حداد.»[1].

وفي معرض شرحه لتطوّر الشعر في الفترة الاستعمارية ضِمن ما يُسمى بـ(المدرسة الجزائرية) الذي أراد المستعمر تكريسه، والإشادة بالكتّاب الجزائريين الذين أبدعوا باللّغة الفرنسية، يذكر أنّ في عهدها اختفى الأدب العربي والإسلامي كما اندمج فيها الإنسان الجزائري، في نظرهم، في المجتمع الفرنسي، تماما مثلما اختفت نظم القضاء والمعالم الإسلامية والتراث، وكي ينقض الباحث هذا الزعم أشار إلى تأخر الإبداع الشعري باللّغة الفرنسية، مفسّرا ذلك بقوله:« ولعل ذلك راجع إلى سيطرة التفكير العربي على العقل الجزائري، ذلك أنّ الشعر في أية لغة هو علامة على سيطرة تلك اللغة على عقل المتكلمين بها واندماجهم فيها.»[2].

وإذا كان الموقفان على اختلافهما وتضادهما مرتبطان بالعامل التاريخي، أين يظهر فيهما الصراع على الهوية التي تضمن الأرض، فإنّ المؤلف حاول أن ينقل طرق تلقي الأدب الجزائري في فترة حاسمة من تاريخه، وهو ينقل مشكلة اللّغة في كتابة الأدب الجزائري، فضلا عن الرؤية التزامنية في تحديد الأدب الجزائري سواء ممن كتبوه أم الذين اهتموا به، وكانوا من معاصريه. وقد تنوعت النّصوص التي تناولت الأدب الجزائري المكتوب باللّغة الفرنسية، وبطريقته التحليلية نقل (أبو القاسم سعد الله)

(1) تاريخ الجزائر الثقافي، ج10، ص157.

(2) تاريخ الجزائر الثقافي، ج08، ص202.

مقالات منشورة في الصحف[1]، وكأنّ المؤلف يطبّق ما نادت به مدرسة (كونستانس) بخصوص تاريخ الأدب[2].

4-الأدب الجزائري بين التاريخ، والثقافة، والاجتماع.

استخدم(أبو القاسم سعد الله) عبارات لها صلة مباشرة بالتاريخ، هي (تاريخ الأدب العربي)، فقد دعا المستشرقون الفرنسيون المهتمون بالتعليم في الجزائر إبان الاستعمار إلى تدريس تاريخ الأدب العربي.[3]واستخدم عبارة: (تاريخ النقد الأدبي)في معرض تحليله لطرقتين في(الشرح الأدبي)، شرح ابن سحنون و شرح أبي راس حيث قال: « فكلا الشرحين إذن مصدر من مصادر تاريخ النقد الأدبي في الجزائر»[4]، ومن المواطن التي أشار فيها (أبو القاسم سعد الله) إلى التداخل بين (الأدبي) و(التاريخي)، ويمكن أن نستنتج منها صعوبات تصنيف المؤلفات، ما ذكره في تحليل مؤلف (ابن ميمون)، حيث قال:« ورغم أنّ ابن ميمون أديب ماهر يذهب مذهب الفتح بن خاقان(...)، فإنّ عمله أقرب إلى التاريخ منه إلى الأدب، ولذلك فضلنا أن ندرس كتابه في فصل التاريخ، أما النواحي الأدبية من الكتاب فهي شكله وأسلوبه. فقد جعله ابن ميمون على شكل المقامات، والمقامة من أنواع الأدب، كما أن أسلوبه مسجع رقيق، أما عنصر الحكاية والخيال الضروري للمقامة الفنية فيكاد يكون منعدما عند ابن ميمون، لقد حاول أن يجعل كل مقامة عبارة عن وحدة قصصية تخص موضوعا معينا، ولكنه كان مجبرا، وهو يتناول شخصيات تاريخية وأحداثا واقعية، أن يكتب التاريخ لا الأدب وأن يسجل الوقائع لا الخيالات»[5] بيّن المؤلف أسباب إهمال الجزائريين للكتابة في التاريخ، فقد كان تصورهم السلبي لوظيفته أقواها، فكانت النتيجة أن أدرجوا التاريخ ضمن الأخبار والسير التي هي أقرب إلى الأدب، كما طوّعوا المادة التاريخية لتتناسب مع خصائص

---

(1) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج10، ص160-187.

(2) ينظر: هانس روبرت ياوس، جمالية التلقي من أجل تأويل جديد للنّص الأدبي، تر: رشيد بنحدو، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى2016، ص49، 50.

(3) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج06 ، ص61.

(4) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص177.

(5) تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص209.

الأجناس الأدبية كالمقامة[1].

كان الأدب العربي رافدا لمفاهيم التصوّف، حيث احتوى تجارب الصوفية في العشق الإلهي، ما جعل الجمع بين الأدب والتصوف تلاقحا طبيعيا؛ بحيث عُدّ التصوف مصدرا للإلهام الشعري ينافس المصادر الأخرى المحفزة للإبداع، وقد أوضح (أبو القاسم سعد الله) هذه الخاصية في الأدب الجزائري في مواطن كثيرة من كتابه، « ولأبي عصيدة كتاب في الأدب والتصوف (...) إنّ الكتاب قد جمع بين الأدب والتصوف لأنّ مؤلفه أخبر بعد ذلك أنّه خصص بقيته إلى العبادة والزهد ناقلا عن أهل التصوف»[2]. غيّر أنّ استقلال دواوين شعرية كاملة بتجارب التّصوف أسس لشعر سمّي بالشّعر الصوفي له أسلوبه المميز، وخصائصه الفنية. ويُعدّ (ابن الفارض) من شعراء الصوفية الذين أثّروا في شعراء التصوف الجزائريين، وبخاصّة في الجوانب الفنية[3].

إنّ الحياة التي ألفها النّاس في هذا العصر أثّرت تأثيرا بالغا في الحياة الأدبية، فالشعراء يتقلّبون من حال إلى حال، فيكون الشّاعر في أوّل أمره مادحا لذي سلطان طمعا في العطايا، ثمّ تتغيّر حاله فينصرف إلى الزهد ، وينتقل إلى التّصوف، لهذا نجد دواوين الشعراء تتضمن غرض المدح، ودافعه الحياة المادية، ويضمّ التصوّف ومحفزه الحياة الروحية.

ومن القضايا التي عرضها (أبو القاسم سعد الله) المتصلة بمفهوم الأدب، ووظائفه التي يمكن أن ندرجها ضمن التداخل بين (الأدبي) و(الاجتماعي)، ولأنّ الأعمال الأدبية تتأثر بالظواهر الاجتماعية، هو ما نجده في وصفه لرحلة (ابن حمادوش) حيث يقول: «وفي رحلة ابن حمادوش نصوص لعقود زواج مختلفة منها الفقهي التقليدي ومنها الأدبي الاجتماعي، ومنها الذي كتب لبكر والذي كتب لثيب، ومنها القصير ومنها المطول، وجميعها تصلح نموذجا لدراسة الحياة الاجتماعية»[4]، يَعدّ المؤلف هذه النصوص على تنوعها مادة خصبة للدراسة المجتمع الذي قيلت فيه؛ فإذا تعرض الكاتب للدور الذي يضطلع به

(1) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص322.

(2) تاريخ الجزائر الثقافي، ج01، ص86 ، 87.

(3) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج01، ص80.

(4) تاريخ الجزائر الثقافي، ج02، ص187.

القصص الشعبي ذكر بأنّه نوع من الترفيه الاجتماعي، لكنّه يمكن أن يؤدي وظائف أخرى تسهم في ثقافة المجتمع، كبناء الذوق الجمالي والفنّي؛ «وكانت رواية القصة الشعبية على النحو الذي أشرنا إليه نوعا من الترفيه الاجتماعي، وكان أداؤها يجمع بين المسرحية أو التمثيلية والحكاية، وكان المؤدون لها، سواء اعتبرناهم ممثلين أو رواة، يؤدونها في الساحات العامة أو في المقاهي أو في خيام خاصة.»[1] وفي تعداده لأشكال القصة الشعبية، كشكل المقامة، والمرائي الصوفية، وغيرها؛ يوضّح المؤلف أنّ هذه القصة لم تدوّن إنّما حافظت على شفويتها، ما صيّر دراستها غير ممكنة، وهذا تأكيد على أهمية الكتابة التي توفر للمؤرخ الوثيقة التي بفضلها يكشف عمّا تؤديه هذه النصوص من دور في ثقافة المجتمع، وقدرتها على وصفه، ومعالجة مشكلاته. ويمكن أن نقرأ في هذا التحليل أيضا ما يراه المؤلف من أثر للنّصوص الشفوية في تكوين الذوق الفنّي لدى فئات المجتمع على مرّ الحقب التاريخية، تحت تأثيرات البيئات المختلفة، ما يجعلنا نقارب هذه النّظرة بما يراه الشكلانيون من أثر السيرورة التاريخية في تكوين القيم الجمالية[2].

ويفسّر المؤلّف شيوع موضوعات دون أخرى في الشعر الاجتماعي بطبيعة المجتمع الذي مثّل بيئة حاضنة لهذا الشّعر، ويتقاطع في هذا التوجيه مع ما درج عليه مؤلفو تاريخ الأدب الذين يعتمدون على نظرية (هيبوليت تين)[3] في تفسير الظاهرة الأدبية من حيث دلالتها الاجتماعية. فقد حدّد (أبو القاسم سعد الله) الشعر الاجتماعي بقوله: «نعني بالشعر الاجتماعي شعر الإخوانيات الذي يشاطر فيه العلماء بعضهم بعضا في مناسبات معينة، وشعر الرثاء والتقريظ والمدح لغير الأمراء ورجال الدين، وشعر المجون ونحو ذلك، وإذا حكمنا من الإنتاج الذي لدينا فإننا نجد أن شعر الإخوانيات قد سيطر على البيئة. فالشعراء كانوا يتبادلون المدح والنكت وحتى الهجاء والفخر، والعجيب أن شعر الرثاء قليل جدا رغم العاطفة القوية التي يتميز بها الناس عند فقد الأقارب والأحبة والشيوخ، كما أن شعر المجون قليل، ولكن لا غرابة في ذلك فإن

(1) تاريخ الجزائر الثقافي، ج02، ص206، 207.

(2) روبرت هولب، نظرية التلقي مقدمة نقدية، تر: عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، مصر،(د.ط)، (د. ت)، ص111.

(3) ينظر: كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي،ج01، ص05.

المجتمع على العموم مجتمع منقبض قاس على نفسه»[1].

يرى (أبو القاسم سعد الله) أنّ الكتابة في التاريخ الثقافي مرتبط بالأحداث السياسية والاقتصادية التي عاشها المبدع، فضلا على أنّ الإنتاج الأدبي سيحمل نتائج الأحداث التي عاصرها المبدع، وأنّ ظاهرة ارتباط الإبداع في جزء منه بالحاكم أو السلطان توفرت في الثقافة الجزائرية عبر العصور، كما لا ينفي هذا وجود الإبداع خارج دائرة الحكم، ورغم أنّ المؤلف يتحكم في نزعة التحليلية الطابعُ التاريخي القائم على الاستنتاج والاستقراء فإنّه يرى أنّ الإبداع يمثّل للمؤرخ وثيقة تاريخية يمكن الاعتماد عليها في قراءة أحداث الفترة التي ظهر فيها، وتمرّ هذه القراءة بمراحل المقارنة بينها بين الوثائق الأخرى، وما اتصل بالإبداع اتصالا مباشرا، أو ما ارتبط بالحياة الاجتماعية والسياسية كما هو الشأن في التأليف الفقهي.

ويستنتج أنّ كثيرا من الأحداث في الفترة التي دارت فيها الحرب بين العثمانيين والإسبان لأجل استرداد مدينة وهران، أنتجت أدبا غزيرا. «إنّ هذا النزاع المستمر بين الجزائريين والإسبان قد أدى إلى إنتاج أدبي غزير كما لعب فيه الدين والتصوّف والدروشة دورا رئيسيا»[2] وهي إشارة إلى دور الحرب والحماسة في الإبداع الأدبي[3]. كما يظهر هذا الاستنتاج الدور الذي لعبه الأدب في شحذ الهمم. وقد اجتهد المؤلف في تحديد بواعث إنتاج الشعر عبر العصور، كالروح الوطنية، والفروسية، الروح الدينية، وروح العصر.

وصف المؤلف (الشروح الأدبية) التي شاعت في الأدب الجزائري، وعمد إلى استخلاص خصائصها الفنية، بعدما بيّن الفئة المتعلمة التي اضطلعت بهذا الشرح، والأسباب التي دفعتهم إلى الاهتمام بهذا الجنس الأدبي دون غيره، فهو يقول في وصف الشروح الأدبية «وهناك ظاهرة أخرى تلفت النظر في الأدب الجزائري وهي أن الأدباء بدل أن يخترعوا القصص والروايات أو يؤلفوا في الظواهر الثقافية والنقد عمدوا إلى شرح الأعمال الجاهزة، ونحن هنا لا نقصد شرح الأعمال الصوفية والتاريخية والفقهية، ولكننا

(1) تاريخ الجزائر الثقافي، ج02، ص266، 267.

(2) تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص143.

(3) ينظر: محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، السعودية، (د.ط)، (د.ت)، ج01، ص259.

نقصد شرح الأعمال الأدبية. والشرح الأدبي قد يكون على قصيدة نظمها الشارح نفسه وقد يكون على قصيدة أو عمل آخر لغيره، وقد حفل الإنتاج الجزائري بالنوعين.»[1].

وفي نقده لشرح (أحمد النقاوسي) للقصيدة المشهورة ب(المنفرجة)الذي عنونه ب(الأنوار المنبلجة من أسرار المنفرجة)؛ حلّل (سعد الله) الشرح الوارد في الكتاب إلى ثلاثة أقسام: الشرح اللّفظي، والشرح الأدبي، والشرح المعنوي، وخلص إلى أنّ (النقاوسي) كان يقصد الشرح المعنوي الذي يبدي تصوّفه لذلك لا يمكن أن يصنّف كتابه ضمن الأدب،« يسير(النقاوسي) في شرحه على طريقة شرح المتون المعروفة، ولكنه يتبع في ذلك ثلاث مراحل واضحة: الأولى الشرح اللفظي والثانية الشرح الأدبي والثالثة الشرح المعنوي. ولو كان النوع الثاني هو الذي يهم النقاوسي لعددنا شرحه في باب الأدب واللغة ولكن الذي كان يعنيه هو الأخير. وهو بذلك يبحث عما في القصيدة من معنى الخير والصلاح والبركة وما تفيده لقارئها من فضائل وانفراج. ولذلك عددنا عمله في باب التصوف والزهد. ويبدو (النقاوسي) في شرحه أديبا متمكنا أيضا وواسع الاطلاع قوي العبارة.»[2] والواضح أنّ خطة التأليف التي اتّبعها في تصنيف الأعلام والنّصوص دفعته إلى الدراسة النقدية التي تمكّنه من تحكيم المعايير النقدية في هذا التصنيف، وتقوده المقارنة إلى دراسة العَلَم المشهور بالأدب والتّصوف فيغلّب جزءا على آخر، « ورغم اهتمام أحمد أبي عصيدة بالأدب الصرف والشعر فإنّه قد انجرف في تيار التصوف أيضا(...)ويظهر أن أبا عصيدة الأديب قد تغلب على المتصوف»[3].

من قضايا النقد في الأدب الجزائري التي أثارها (أبو القاسم سعد الله)، وتقع ضمن التصنيف والترتيب، تحديدُ أغراض الشعر التي في ضوئها يدرس الشعر الجزائري في فترة محددة، ويبدو أنّه يأخذ بمقولات النقاد العرب القدامى في تقسيم الأغراض الشعرية إلى أصول وفروع، فالمدح غرض شعري أصل يقع تحته الرثاء، والهجاء[4]: « شعر المدح كثير نسبيا، وهو يشمل مدح الأعيان والمشاريع والأفكار والمؤلفات وغيرها،

(1) تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص174.

(2) تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص90، 91.

(3) تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص110.

(4) ينظر: حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب ابن خوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، الطبعة الثالثة، 2008، ص11، 12.

والشعراء خاضوا في كل ذلك تقريبا. وقد كدنا نعتبر جانبا من الشعر السياسي في الفرنسيين مدحا أيضا، مثل مدح (نابليون الثالث)، ومدح (جونار)، لولا أننا رأيناه شعرًا متسيسا إلى حد كبير، بينما شعر المدح قائم في الأساس على الإعجاب والاحترام. وسندخل في شعر المدح أيضا تقاريظ الكتب ونحوها والإشادة بأصحاب الجرائد والمواقف. وقد ذكرنا جانبا من ذلك في حديثنا عن قصيدة (حسن بن بريهمات) في (خير الدين التونسي) وكتابه وربطنا ذلك بتطور العالم الإسلامي والحضارة الغربية. وشعر الرثاء مدح أيضا، لأن الشاعر الراثي إنما يسجل أسفه على الفقيد ويعدد محامده كما لو كان حيا.(...) والهجاء من المدح أيضا.»[1].

ربط (أبو القاسم سعد الله) –كعادة مؤرخي الأدب- شهرة الشاعر بالسلطان، بحيث يختص الشاعر بأمير، وهي عادة شاعت في الأدب العربي درسها النّقاد موضحين أثرها في التجربة الشعرية، فـ(روجي بلاشير) يرى أنّ الشاعر بهذا الصنيع يفقد حريته، وقدرته على التجديد[2].

من القضايا التي شغلت النّقاد بخصوص الأدب الجزائري في القرن التاسع، غياب التأثير الأندلسي في الحياة الأدبية رغم وفرته في الحياة الاجتماعية والثقافية. وهو ما أدي بالمؤلف إلى عرضها القضية من أجل اكتشاف الأسباب.

5-تطوّر الفنون النثرية في الأدب الجزائري

5-1:الأشكال النثرية وتطوّرها

جمع (أبو القاسم سعد الله) نصوصا نثرية كثيرة، انتخب بعضها ليستشهد على مشكلات الأشكال النثرية في الأدب الجزائري، وقد طرح للنقاش قضايا نقدية جمالية من منظور التاريخ الأدبي؛ ورأى أنّ حلول هذه القضايا يمكن إيجادها بالاعتماد على استخدام اللّغة العربية، وكيفية تطوّر هذا الاستخدام، ولعله يلمح إلى دور الدراسات الأسلوبية التاريخية في تحليل النّصوص الأدبية التي طالما وظّفها مؤرخو الأدب، والنّقاد

(1) تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، ص261.

(2) ينظر: رجي بلاشير، أبو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي، تر: إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الثانية1985، ص19 ، 20، 21.

على حدّ سواء[1].

أرّخ (أبو القاسم سعد الله) لفنون النثر العربي في الأدب الجزائري عبر العصور، وحاول أن يبيّن مظاهر التطوّر الحاصلة في أسلوبها ومضمونها، وذلك عن طريق عرض النماذج المختارة، وتحليلها، وإيضاح ما توفرت عليه من خصائص، فـ« من أشكال النثر الأدبي أيضا التقاريظ وبعض الإجازات والعقود والتعازي ونحو ذلك مما كان النثر فيه وسيلة للتعبير دون الشعر. وفي التقاريظ تسيطر الروح الإخوانية على الأسلوب، وتبرز ثقافة الكاتب الأدبية واللغوية، ولدينا جملة من هذه التقاريظ التي كان يتناولها العلماء والأدباء على السواء، وكانت في موضوعات فقهية كما كانت في موضوعات أدبية أو غيرها، فالمهم هنا هو الأسلوب الذي كتب به التقريظ وليس الموضوع المقرظ»[2].

ويحكّم المؤلف رؤية مدققة في خصائص الفنون النثرية التي استوحاها الأدب الجزائري من الأدب العربي، ليتبيّن التغييرات الدخيلة ، فمن أمثلة ذلك فن المقامة حيث لم يعد أدبيا خالصا، بل أُستعمل شكل المقامة وأسلوبها لنقل موضوعات لا صلة لها بالأدب، مثال ذلك مقامات (محمد بن ميمون) التي سخر فيها أسلوب المقامة وشكلها ليحرر تراجم الأعلام المشهورين في عصره، وقد وصفها المؤلف بقوله:« وأظهر كاتب استعمل المقامة هو محمد بن ميمون في ترجمته لحياة الباشا (محمد بكداش)، والغريب أنّ ابن ميمون قد سمى كتابه في ذلك (التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية)، ولم يسمه مثلا المقامات المرضية أو نحو ذلك من التسميات حتى تتسق مع المحتوى (...) فقد جعل ابن ميمون كتابه على شكل المقامات، والمقامة من أنواع الأدب، كما أنّ أسلوبه مسجع رقيق، أما عنصر الحكاية والخيال الضروري للمقامة الفنية فيكاد يكون منعدما عند ابن ميمون، لقد حاول أن يجعل كل مقامة عبارة عن وحدة قصصية تخص موضوعا معينا، ولكنّه كان مجبرا، وهو يتناول شخصيات تاريخية وأحداثا واقعية، أن يكتب التاريخ لا الأدب وأن يسجل الوقائع لا الخيالات»[3].

(1) ينظر: فرانسوا راستي، فنون النّص وعلومه، تر: إدريس الخطاب، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى2010، ص217.

(2) تاريخ الأجزائر الثقافي، ج02، ص182.

(3) تاريخ الجزائر الثقافي، ج02، ص208، 209.

وبعد هذا التحليل يذكر (أبو القاسم سعد الله) من العلماء الجزائريين الذين ألّفوا في المقامة، فمنهم من استخدمها شكلها وأسلوبها فحسب، ومنهم من أبدع مقامة فنية كمقامات (ابن حمادوش) التي لا ينقصها عنصر الحكاية ولا الخيال ولا طرافة الموضوع ولا الرمز، وتجمع النثر إلى الشعر، وهذه خصائص المقامة الشكلية والفنية.[1] وقد درس تطوّر هذه الجنس الأدبي القديم ، وقسّم تطوّره إلى ما قبل العهد التركي، وإبان العهد التركي، وبعده، مجريا مقارنة بين خصائصه في كل عصر من هذه العصور، وانصبت المقارنة في البداية على الكم حيث ركّز على حجم إبداع المقامة، وكثرة أعلامها، ثمّ انتقل في الأخير إلى الكيف حيث درس الخصائص الفنية ومدى إجادة المشتغلين بها، ثمّ ذكر الأسباب في تراجعها آخر أمرها[2]، أمّا في العهد الاستعماري، فرغم ما أصاب اللّغة العربية من تدهور إلاّ أنّ مبدعي المقامات استمروا في مقاومتهم لهذا الظلم الذي يستهدف الهوية الجزائرية في لغتها، ويعرض (أبو القاسم سعد الله) ما كتبه (محمد بن علي بن الطاهر الجباري) من مقامات؛ حيث ذكر أنّ «الجباري كان أديبا بطبعه، محبا للغة العربية، ينظم الشعر ويهوى التمثيل(...)كان الجباري حريصا على تأليف مقامات يحفظ بها اللغة العربية من الضياع، ولعله أحس بغريزته أن هذه اللغة كانت تتدهور وتتلاشى فكتب مقاماته مستوحيا الحريري والهمذاني(...)اعتمد الجباري في كتابة مجالسه التسعة عشر على الذاكرة، فكان محفوظه غزيرا. وكان يروي المغامرات المسلية، ويتداخل فيها. فمقاماته نوع من السيرة الذاتية له أيضا. لقد كتبها بأسلوب هزلي مفصل.»[3].

إنّ خصائص المقامة الشكلية والأسلوبية ساعدت المبدعين الجزائريين على تطويعها لخدمة أغراضهم فخرجوا به عن أصله الأدبي إلى موضوعات يهتمون بها، فمنهم من جعلها في خدمة كتابة التاريخ، ومنهم من جعلها وسيلة لعرضها سيرته الذاتية، كما هو الأمر عند (الجباري). وعلى هذا تكون المقامة قد أدت وظائف كثيرة على رأسها المحافظة على اللّغة العربية وقت كانت مستهدفة من الاستعمار.

ومن القضايا المرتبطة بدراسة تاريخ الأدب التي بنى عليها (أبو القاسم سعد الله) تصوّر

(1) تاريخ الجزائر الثقافي، ج02، ص211.

(2) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج08، ص145 ، 146 ، 147.

(3) تاريخ الجزائر الثقافي، ج08، ص149، 150.

لتاريخ الأدب الجزائري، المنهج الذي ينظر إلى الأدب باعتباره سيرورة تاريخية، وتحليل الأعمال الإبداعية، فغالبا ما يقف عند الفترة فيحدّد خصائص الأدب فيها، ويربطها بما سبقها من الفترات، ثمّ ينتقل إلى تحليل أعمال الأدباء. ومفهوم السيرورة يستند على مفاهيم تطوّر الظاهرة الأدبية عبر الزمن، وهو ما يؤسس لاعتبار الأدب حدث في التاريخ، له أسباب أسهمت في حدوثه في فترة محدّدة، ونضرب أمثلة عن التطوّر الحاصل في النثر باللّغة العربية بالجزائر، منها ما سمّاه (أبو القاسم سعد الله) العرائض والشكايات، والنداءات، والوصايا والنصائح، وهي فنون نثرية أملتها ظروف قاهرة تعرّض لها الشعب الجزائري، خاصّة في الفترة الاستعمارية، أو ما عاصره علماء الجزائر من أحداث أبدوا موقفهم منها، فقد عرّف العرائض بقوله:« هناك أنواع أخرى من الأدب استعمل فيها النثر الراقي والأسلوب الصافي واللغة الجيدة. ونعني بذلك أشكالا من التعبير الفردي أو الجماعي يتفنن فيها الكتاب بعض التفنن لكي تصل إلى السامع أو القارئ مؤثرة نافذة. ولا يمكن أن تصدر هذه الأشكال إلا عن كتاب مهرة وأدباء حذاق، فإذا صدرت عن غيرهم كانت ضعيفة باردة لا تؤثر وإن حصل بها المقصود من التبليغ ونعني بها، العرائض والنداءات السياسية والنصائح. وقد صدرت العرائض عن الجزائريين منذ بداية الاحتلال. وكانت عادة تصدر عن الفئات الاجتماعية التي أصابها الاحتلال في الصميم، فكانت تحاول توصيل شكواها ورغبتها في عريضة جماعية»[(1)] والملاحظ أنّ المؤلف يعطي طبيعة اللّغة أهمية بارزة في تصنيف هذه الأشكال من النّصوص التي يبدو أنّها استحدث، أو نقلت من مجال معيّن لتدرج في مجال الفنون النثرية، وبذلك تؤدي اللّغة الأدبية الراقية دورا أساسيا في إكساب هذه النّصوص صفة الأدبية. وللتفرقة بين الأشكال الأدبية احتكم إلى محتواها.

2-5:تطوّر أسلوب الأدب الجزائري

إذا كانت اللّغة الأدبية هي المقياس الذي اعتمده في تصنيف أشكال النثر المستحدثة في الأدب الجزائري، في فترات معيّنة، وهو مقياس أساسي من حيث الحكم على النّصوص بالأدبية، فإنّ استخدام اللّغة العربية عبر الفترات التي أرّخ لها (أبو القاسم سعد الله)، ومن فئات متعلمة، ومثقفة قد أفضت إلى استخدام مصطلح الأسلوب الذي نسبه مرة إلى علم من الأعلام، ومرّة إلى نوع أدبي، أو شكل من أشكال

(1) تاريخ الجزائر الثقافي، ج08، ص156، 157.

الكتابة، أو إلى عصر من العصور المدروسة، وقد دارت هذه الكلمة في مؤلفه، وتنوعت استخداماتها بحسب الهدف الذي يحاول إصابته، وحاول من خلالها أن يثبت على ما تعرّضت له اللّغة العربية من رقي، وانحطاط في الفترات التي استهدفها بالدرس والتحليل؛ والمرجح أنّه طبّق في دراسة تطوّر الأسلوب منهج الدراسة الأسلوبية التاريخية التي تحدّد اختلاف الأسلوب في النصوص اللّغوية في فترات تاريخية متعاقبة، ومقارنة الفوارق في استخدامات اللّغة(1).

وقد اتّبع (أبو القاسم سعد الله) هذه المقارنة بين الأعلام الذين يمثّلون نقطة بارزة في تطوّر الأسلوب كالمقارنة التي أجراها بين (عاشور)، و(البشير الإبراهيمي)، حيث ذكر أنّ: «عاشور كان يميل إلى أسلوب التراث ولا يرضى بأسلوب المتأدبين الجدد. ولعله يقصد أولئك الذين يكتبون بالطريقة التي شاعت في صحف المشرق. أما أساليب الجزائريين فقد ظلت محافظة وضعيفة من جهة أو متأثرة بالتعابير الاستشراقية من جهة أخرى. فنقده للأسلوب الجديد وتفضيله الأساليب البلاغية القديمة يذكرنا أيضا بنقد الإبراهيمي لأساليب معاصريه وميله هو (الإبراهيمي) إلى طريقة القدماء اليت كانت مخزونة في حافظته»(2).

واضح أنّه يفرّق بين أسلوبين هما أسلوب التراث، وهو أسلوب اللّغة العربية القديمة الفصيحة، وله خصائصه، والأسلوب المتأدب الجديد الذي ظهر في المشرق. ولكلّ أسلوب بيئته التي شاع فيها، والموضوعات التي اختص بها. كما يفاضل بين الأسلوب في الجنس الأدبي الواحد فيحكم عليه بالرقي تارة وبالضعف تارة أخرى، ويرى أحيانا أنّ الأسلوب هو ما يؤهل النّص النثري كي يدرج ضمن فنون النثر، حيث ذكر أنّ« صيغة بعض الإجازات رغم موضوعها وثبوتها على شكل واحد تقريبا، كانت أقرب إلى الأسلوب الأدبي، لأن أصحابها كانوا من الأدباء المهرة فيضفون عليها طابعهم وذوقهم، وبذلك تصبح الإجازة أيضا قطعة أدبية من حيث الأسلوب على الأقل»(3).

وبهذا نرى أنّ الأسلوب الصادر على براعة يمتلكها الفقيه الأديب، أو القاضي البارع

(1) Patrick Studer , Historical Corpus Stylistics Media, Technology and Change, Continuum The Tower Building, London 2008,p 7-8.

(2) تاريخ الجزائر الثقافي، ج08، ص77، 78.

(3) تاريخ الجزائر الثقافي، ج02، ص183.

في اللّغة تصيّر نصوص العقود رغم وظيفتها القانونية والدينية، إلى قطعة أدبية، يميّزها أسلوب أدبي يحوّله إلى نموذج يقتدى به؛ فقد «كان الكتاب يفتنون في كتابة العقود، لا سيما عقود الزواج، ويظهرون براعتهم اللغوية والأسلوبية حتى أصبح العقد النموذجي يقلد في المناسبات المشابهة، وكان بعض القضاة أدباء بطبعهم يحذقون اللغة، ويتذوقون الأسلوب الأدبي، فكانوا يمزجون ثقافتهم الفقهية والقانونية بثقافتهم الأدبية واللغوية، وبذلك أعطونا نماذج من العقود التي غلب عليها الطابع الأدبي.»[(1)].

والواضح أنّ المؤلف يهمه في كلّ هذه الأشكال النثرية التي تعدّ جديدة على الفنون النثرية القديمة (المقامة، والرسالة، والخطابة، والوصية...) التي عرفت في الأدب العربي القديم على أنّها محلّ الإبداع الأدبي، ويدرك أيضا أنّ هذا الصنيع قد يوقعه في باب الانتقاد لذلك يستند على مفهوم الأسلوب الذي يدخل هذه النصوص ضمن فنون النثر الأدبي. ويمكن أن نعدّ إلحاقه هذه النصوص بفنون النثر العربي بالتطوّر الذي أثرى النثر الجزائري، وهو دليل على سيادة اللّغة العربية وانتشارها على ألسنة الجزائريين، وشيوعها بأسلوب رفيع عند كثير من فئات المجتمع الجزائري، رغم أنّ السلطة لم تكن عربية، واللّغة الإدارية لم تكن عربية، وهو دليل آخر على أنّ اللّغة العربية الفصيحة قد أخذت مكانتها عند الجزائريين، وهي مكانة لا تنفسها فيها لغة أخرى. ونتيجة أخرى فإنّ المؤلف ينقل إلى القارئ بالتأريخ للأدب الجزائري مدى ما أسهم به علماء الجزائر، وأدباؤها.

والمقارنة بين الأشكال النثرية القديمة، والأشكال النثرية التي عدّها المؤلف أدبا للغتها الراقية، وأسلوبها الرفيع، تطرح مفهوم الأدب عند (أبو القاسم سعد الله)، وهو مؤرخ الثقافة، والأدب الجزائري؛ فما هو معروف لدى مؤرخي الأدب أنّ النّص لا يعدّ أدبا إلاّ إذا ادّعى منشئه بأنّه أدب. يقول (رجي بلاشير):«تختلف النّظرة إلى الكتاب ذي الصفة الأدبية بالنسبة للجمهور والمؤلف، فربّ كتاب يعتبره الجمهور أدبيا بينما صاحبه ألّفه للباحثين والمختصين، فلم يقصد من ورائه سوى غرض تعليمي مجرد عن كلّ غاية أدبية، ومع ذلك فأنّ هذا الأثر المكتوب يكتسب، بفضل عوامل شتى، في نظرة طبقة أخرى من القرّاء، صفة أدبية لا جدال فيها.»[(2)]، غير أنّ المؤلف اشترط في هذه

(1) تاريخ الجزائر الثقافي، ج02، ص183.

(2) رجي بلاشير، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، تر: إبراهيم كيلاني، دار الفكر بدمشق، سوريا، (د.ط)، =

النّصوص كي تلحق بالفنون النثرية شروطا داخلية مرتبطة بالنّص نفسه، وأخرى خارجية تابعة إلى مبدع النّص وكاتبه، فأمّا الداخلية فهي اللّغة الفصيحة الراقية، والأسلوب الرفيع، وأمّا الخارجية فأن يكون مبدع هذه النّصوص عالما أديبا، يتذوّق النّصوص الرفيعة، تشهد له بذلك أعماله الأدبية.

ولدراسة الأسلوب الخاص بالشخصية الأدبية، أو العلم المشهور بعلمه، أورد (أبو القاسم سعد الله) نماذج من الرسائل الإخوانية، تبادلها العلماء، منها رسالة(الثعالبي) ردّا على مراسلة (العياشي المغربي)، «فقد كاتبه العياشي المغربي ذات مرة بقصيدة جعل لها مقدمة نثرية، فرد عليه الثعالبي بنفس الأسلوب»[1] وهو ما يعدّ نوعا من المساجلة وإبراز القدرات في الإنشاء، والإبداع، ونجد علما من أعلام الجزائر ينحو في هذا الاتّجاه، وهو(المقرّي) الذي أراد أن يقلّد (لسان الدين بن الخطيب) في أسلوبه؛ «أعجب المقري بلسان الدين بن الخطيب فنسج على منواله، ولعل إعجابه به لم يقتصر على الأسلوب الأدبي فنحن نعتقد أن المقري كان يحاول تقليد ابن الخطيب في حياته السياسية أيضا لو ساعفته الأيام (...) حسبنا التنبيه إلى أن المقري قد اتبع طريقة ابن الخطيب في تحرير العبارة وانتقاء الألفاظ والسجع الجميل وتوشيح النثر بالشعر، وحتى في اختيار عدد من الموضوعات، وقد هدف المقري إلى أن يكون كتابه مرجعا للشعراء والأدباء وطلاب الموعظة»[2].

ومن استنتاج (سعد الله) يمكن أن نبني تصوّرا لأسلوب الشخصية الأدبية، بأنّه تقليد لأسلوب سابق أصبح معلما يقتدى به، وأنّ من خصائصه تحرير العبارة، والسجع الجميل، وتوشيح النثر بالشّعر، واختيار الموضوعات معينة. وأساس هذا الأسلوب الذي يميّز عَلماً هو الثقافة اللّغوية، ثمّ التمكن من الفنون الأدبية، والتوسّع في المعارف الأخرى، وأنّ الأسلوب يتطوّر بتطوّر هذه الثقافة. فإذا ضعفت ضعف معها الأسلوب، وتراجع إلى مستوى الاستعمال العامي للّغة.

كما يربط (أبو القاسم سعد الله) مفهوم الأسلوب بالعهد(العصر) الذي يدرسه، فعلى سبيل المثال عند دراسته للعهد العثماني يؤكد على أنّ هناك خصائص تميّز

=

(د.ت) ، ص11.

(1) تاريخ الجزائر الثقافي، ج02، ص196.

(2) تاريخ الجزائر الثقافي، ج02، ص220.

الأسلوب في هذه العهد على مستوى العبارة، وأنّه أسلوب مصطنع[1]، ويمكن أن نستنتج أنه يعتمد على مقولة أنّ العمل الأدبي يُتّخذ كوثيقة للتاريخ اللّغوي[2].

وقد استخدم (أبو القاسم سعد الله) مفهوم الأسلوب الذي يقصد الاستخدام المتفرد للّغة العربية من طرف شخص، أو مجموعة لوصف لغة الصحافة. ففي تحليله جريدة (المبشّر) الرسمية، قال:« إنّه بالرغم من وجود الإشراف الفرنسي على الجريدة: إدارة وسياسة وتوجيها وماليا، فإن مادتها الخبرية كانت مشتركة بين الجزائريين والفرنسيين، أما الأسلوب في المرحلة الثانية والثالثة فيمكننا أن نقول إنه كان جزائريا محضا فيما يتعلق بالقسم العربي. كانت المادة الخبرية في القسم الفرنسي تترجم في أغلبها إلى القسم العربي بأسلوب جزائري، متأثرا أيضا بضعف اللغة العربية وعزلتها عن الغذاء والتطور الذي عرفته الصحافة في المشرق وفي تونس»[3].

ولم يكن الأسلوب ضعيفا في كلّ الصحف والجرائد، فقد كانت صحيفة (كوكب إفريقية) الموجهة إلى الجزائريين التي أشرف عليها (كحول) تلميذ الشيخ (المجاوي) قد ضمن لها تحريرا جيدا ومستوى رفيعًا[4].

خاتمة

نخلص إلى أنّ تاريخ الأدب الجزائري من منظور (أبو القاسم سعد الله) وجدناه يدلّ على مجموعة من النتائج؛ فأوّلها اللّغة العربية وقدرتها على المقاومة والاستمرار في الوجود بالتعبير عن مشكلات حياة الإنسان الجزائري. وثانيها الأسلوب الناتج عن قدرة الإنسان الجزائري في تطويع إمكانات اللّغة العربية لنقل آماله وآلامه في الحياة، وثالثها الأدب العربي بشعره ونثره، وأجناسه الأدبية، وفنونه، وحمولته الثقافية، وأبعاده التاريخية فهو مدخل الأدب الجزائري القائم على التكامل الذي مصدره التشابه، وعلى الاختلاف الذي مصدره التفرد المفروض من عوامل البيئة والتاريخ والثقافة.

---

(1) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج05، ص227.

(2) ينظر: رنيه وليك، آوستن وآرن، نظرية الأدب، تر: عادل سلامة، دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية،(د. ط) 1992 ،ص 240.

(3) تاريخ الجزائر الثقافي، ج05، ص228.

(4) تاريخ الجزائر الثقافي، ج05، ص246.

نتائج البحث:

- درس كتاب (تاريخ الجزائر الثقافي) الثقافة الجزائرية في أكثر من أربعة قرون (1500-1962)، فأكّد دور الثقافة العربية بكلّ مكوناتها (اللّغة العربية، والأدب العربي) في المحافظة على الهوية الوطنية.
- رغم الطابع الموسوعي للمؤلّف إلاّ أنّ (أبو القاسم سعد الله) استطاع إعطاء الخلاصات الدقيقة حول معظم القضايا التي تشغل الثقافة، ومن أهم هذه القضايا الأدب الجزائري، فقد أرخ له مستخدما مبادئ التاريخ الأدبي، كالتحقيب والعصور، والتطوّر، والتجنيس، وغيرها.
- يرى (أبو القاسم سعد الله) أنّ الأدب هو حادثة تاريخية يمكن اعتمادها وثيقة للتأريخ للأحداث الهامّة في حياة الأمّة الجزائرية، ويوطّد العلاقة بين الأدبي والثقافي، فيجعل الأدبي يخدم الثقافي، وإن كان من إنتاج النخبة.
- تضمّن (تاريخ الجزائر الثقافي) تاريخا للأدب الجزائري في أربعة قرون ونصف، أدت فيه اللّغة العربية دورا هامّا في تأسيس لأجناسه الأدبية، وموضوعاته الشعرية، وعبّرت على الشعب الجزائري طيلة هذه الفترة، فهو أدب عربي حامل لحضارة إنسانية لا يقل أهمية عن الآداب العالمية.

المراجع

المراجع العربية:

01- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (د.ط)،دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.

02- بول آرون وآلان فيالا، سوسيولوجيا الأدب، تر: محمد علي مقلد،(ط.01)، دار الكتاب الجديدة، 2013.

03- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب ابن خوجة،(ط.03)، الدار العربية للكتاب، تونس، 2008.

04- روبرت هولب، نظرية التلقي مقدمة نقدية، تر: عز الدين إسماعيل،(د.ط)، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، مصر، (د. ت).

05- رجي بلاشير، أبو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي، تر: إبراهيم الكيلاني،(ط.02)، دار الفكر ، سوريا، 1985.

06- رجي بلاشير، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، تر: إبراهيم كيلاني،(د.ط)، دار الفكر بدمشق، سوريا، (د.ت).

07- رنيه وليك، آوستن وآرن، نظرية الأدب، تر: عادل سلامة،،(د. ط)، دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية1992.

08- فرانسوا راستيي، فنون النّص وعلومه، تر: إدريس الخطاب،(ط.01)، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2010.

09- كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تر: عبد الحليم النّجار،(ط.05) دار المعارف، (د.ت).

10- كليمان موازان، ما التاريخ الأدبي؟، تر: حسن الطالب،(ط.01) دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان،2010.

11- محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تح: محمود محمد شاكر،(د.ط دار المدني، جدة، السعودية، (د.ت).

12- هانس روبرت ياوس، جمالية التلقي من أجل تأويل جديد للنّص الأدبي، تر: رشيد بنحدو،(ط.01)، منشورات الاختلاف، الجزائر،2016.

المراجع الأجنبية

13- Patrick Studer , Historical Corpus Stylistics Media, Technology and Change, Continuum The Tower Building, London, 2008.